مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

تخطيط مدينة السلام(بغداد) في عهد المنصور(قراءة في أبعاد الاستدامة العمرانية)

م.م محمد حسين حنون
المديرية العامة لتربية ذي قار
mohammed22hussein87@gmail.com

الملخص

عندما أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ببناء عاصمته الجديدة "مدينة السلام" عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢م، لم يكن يبني مجرد مدينة، بل كان يؤسس لصرح حضاري يعبر عن قوة الدولة ورشاد تخطيطها.

تكمن مشكلة البحث في كيفية التوفيق بين المنعة العسكرية والنمو الحضري المستدام. وتفترض الدراسة أن الموقع الاستراتيجي بين الأنهار واستخدام الآجر المحلي حقق اكتفاءً ذاتياً وأمنياً.

وقد توصل الباحث إلى أن بغداد شكلت ثورة في عالم الاستحكامات الدفاعية (المدخل المزور، تعدد الأسوار)، كما أثبتت كفاءة استثنائية في الاستدامة الموقعية والاجتماعية، بينما كان اندثار أسوارها نتاجاً لعوامل بيئية وتوسع سكاني طبيعي.

الكلمات المفتاحية: (التخطيط، المنصور، العمارة العباسية، الاستدامة).

Planning the City of Peace (Baghdad) During the Reign of Al-Mansur (A Study of the Dimensions of Urban Sustainability)

Assistant teacher. Mohammed Hussein Hannoun
General Directorate of Education of Dhi Qar
mohammed22hussein87@gmail.com

Abstract

When the Abbasid Caliph Abu Ja'far al-Mansur ordered the construction of his new capital, "The City of Peace," in 145 AH / 762 CE, he was not merely building a city, but rather establishing a civilizational monument that reflected the power of the state and the wisdom of its planning.

The research problem lies in how to reconcile military strength with sustainable urban growth. The study posits that the strategic location between rivers and the use of local bricks achieved self-sufficiency and security.

The researcher concluded that Baghdad represented a revolution in the world of defensive fortifications (false entrances, multiple walls), and demonstrated exceptional efficiency in site and social sustainability, while the erosion of its walls was a result of environmental factors and natural population expansion.

Keywords: (Planning, Al-Mansur, Abbasid Architecture, Sustainability).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

المبحث الاول: (الإطار العام للبحث)

١. مشكلة البحث

تتمثل الإشكالية المركزية في التساؤل عن مدى قدرة التخطيط الدائري لمدينة السلام على تحقيق "الاستدامة العمرانية" في مواجهة التحديات الأمنية والبيئية والنمو السكاني. وينبثق عن ذلك:

١. ما الدوافع الاستراتيجية وراء مغادرة المنصور للهاشمية وتأسيس عاصمة جديدة؟

٢. كيف استُخدمت مواد البناء المحلية لتحقيق الكفاءة الاقتصادية والبيئية؟

٣. ما أسباب اندثار المنظومة الدفاعية لبغداد رغم عبقرية تصميمها؟

٢. فرضية البحث

يفترض البحث أن تخطيط بغداد مثّل نموذجاً مبكراً "للمدينة المستدامة"، حيث لم يكن الهدف عسكرياً بحتاً، بل مشروعاً عمرانياً استشرافياً دمج بين الموارد الطبيعية (الأنهار، الطين) والاحتياجات البشرية (الأمن، الغذاء، التجارة).

٣. أهمية البحث وأهدافه

تكمن الأهمية في تسليط الضوء على فلسفة "المركزية الاستدامية" في الفكر المعماري العباسي. ويهدف البحث إلى تحليل المنظومة الدفاعية هندسياً، واستنباط الأبعاد البيئية والاقتصادية والاجتماعية التي ضمنت صمود المدينة كعاصمة عالمية لقرون.

٤. المنهجية والحدود

المنهج: الوصفي التحليلي التاريخي.

الحدود المكانية: بغداد (المدينة المدورة والرصافة).

الحدود الزمانية: العصر العباسي الأول (منذ التأسيس ١٤٥هـ).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

المقدمة

لم يكن تأسيس بغداد، أو مدينة السلام كما سماها المنصور، مجرد حدث عمراني في تاريخ الحضارة الإسلامية، بل كان تجسيداً لولادة عاصمة إمبراطورية عالمية، ونقطة تحوّل محورية في جغرافية السلطة والخلافة.

إن العصر العباسي (١٣٢ – ٦٥٦هـ / ٧٥٠ – ١٢٥٨م) يمثل العصر الذهبي الذي ازدهرت فيه علوم العمارة والتخطيط، وكانت مسألة اختيار العاصمة الجديدة للدولة الفتية، التي قامت على أنقاض الدولة الأموية، قضية ذات أهمية قصوى وحساسية سياسية بالغة (الطبري، ٢٠٠٤، ص ٥٠٩، ٦١٥)

بدأت محاولات الاستقرار الإداري منذ عهد الخليفة المؤسس، أبي العباس السفاح، الذي عكست تنقلاته بين عدة مراكز (كالكوفة، وحمام أعين، وقصر ابن هبيرة، وأخيراً الأنبار) حالة من الترقب والحذر وعدم الاستقرار السياسي والإداري الكامل.

هذه التنقلات لم تكن عشوائية، بل كانت بحثاً دؤوباً عن موضع يجمع بين الأمان السياسي والمنعة العسكرية، ويكون بعيداً عن بؤر الولاء القديم والمحتمل (الأعظمي، ١٩٢٧، ص ٤٤).

غير أن القرار الحاسم والنهائي جاء على يد الخليفة الثاني، أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م)، الذي صقلته التجارب والأحداث الجسام، فكانت له عقلية عسكرية وإدارية فذة (الأعظمي، ١٩٢٧، ص ٤٤)

فبعد محاولة بناء الهاشمية بين الكوفة والحيرة، أدرك المنصور أن عاصمة ملكه لا يمكن أن تكون قريبة من الكوفة، التي كانت مركزًا للأطماع ومنابع الفتن (العميد، ١٩٦٧، ص ٤٥)

هذا الإدراك لم يكن مجرد استنتاج إداري، بل كان نتيجة تجربة شخصية مُرّة كادت أن تودي بحياته (ثورة الراوندية سنة ١٤١هـ).

لقد شكلت ثورة الراوندية، وهي جماعة غُلاة كانت تؤله المنصور، صدمة عنيفة كشفت بوضوح عن نقاط الضعف في عاصمة الهاشمية، وأنها "لم تكن منيعة".

ولئن اختلف الباحثون والمؤرخون حول ما إذا كانت هذه الثورة هي السبب الأساسي والمباشر أم كانت مجرد حافز مُسرّع لقرار المنصور، فإن الإجماع يكاد ينعقد على أنها كانت "الحدث" الذي حفر في وعي الخليفة بضرورة بناء عاصمة "حَصينة في موضع حصين".

المنصور نفسه، وفي تصريح نادر، اعترف بأن خروجه يوم الراوندية كاد أن يذهب بالخلافة ضياعاً، مما يدل على عمق وقع الحادثة في نفسه.

إن هذا التوجه لم يكن قراراً معزولاً، بل كان حلقة منطقية ورئيسة ضمن سلسلة أعمال إنشائية عسكرية قادها المنصور شخصياً، بدءًا من إعادة بناء سور ملطية وتحصين المصيصة وانتهاءً ببناء الرصافة والرافقة وإضافة أسوار وخنادق للبصرة والكوفة (البستاني، ١٨٨١، ص ١٢) كانت بغداد المدورة، بتحصيناتها الفريدة وتصميمها الهندسي العسكري، هي الذروة والتاج لهذه السلسلة.

المبحث الثاني: الرؤية الاستراتيجية والعبقرية الإنشائية في تأسيس مدينة السلام

١.١ فلسفة "المدينة السلطوية": الانتقال من الحيرة إلى المركزية المطلقة

لم يكن قرار المنصور ببناء بغداد مجرد بحث عن سكن، بل كان تمرداً على الأنماط العمرانية السائدة.

تاريخياً، كانت المدن الإسلامية الأولى (كالبصرة والكوفة) "أمصاراً" نمت بشكل أفقي وعفوي.

أما المنصور، فقد استلهم فكرة "المدينة الحصن"، حيث العمارة ليست مجرد جدران، بل هي أداة لفرض النظام السياسي.

لقد صقل المنصور فكره المعماري من خلال معاينته الشخصية لترميم الثغور وتدعيم حصون "ملطية" و"المصيصة"، مما جعله يدرك أن العاصمة يجب أن تكون "عقلاً مدبراً" للدولة، محمياً بطبقات هندسية تحول دون وصول "الغوغاء" أو المتمردين إلى قلب السلطة.

١.٢ الاستراتيجية الموقعية: "بغداد" كعقدة مواصلات عالمية

عندما استشار المنصور الخبراء، لم يكن يبحث عن جمال الطبيعة، بل عن "المنعة الطبيعية" و"الاستدامة اللوجستية".. تم اختيار الموقع ليكون "برزخاً" بين دجلة والفرات، وهذا الاختيار حقق أهدافاً لم تجتمع لمدينة من قبل:

الحماية المائية المزدوجة: إحاطة المدينة بالخندق الموصل بنهر "الصراة" الذي يأخذ من الفرات ويصب في دجلة، جعل من بغداد "حصناً مائياً" لا يمكن تطويقه عسكرياً. (الطبري، ٢٠٠٤، ص ٥٠٩، ٦١٥)

التحكم في "شريان الميرة": الموقع سمح للمنصور بالسيطرة على إمدادات الغذاء القادمة من "ديار بكر" شمالاً ومن "البصرة" جنوباً، ومن "الجزيرة" غرباً.

فكانت المدينة تعيش في حالة اكتفاء ذاتي دائم، وهو جوهر الاستدامة الاقتصادية.

١.٣ العبقرية الهندسة (المخطط الافتراضي): تجربة الرماد والقطن

تُعد تجربة المنصور في تخطيط المدينة على الأرض قبل بنائها أول عملية "محاكاة ميدانية" (Field Simulation) في تاريخ العمارة.

رسم المسارات: خط المدينة بالرماد سمح للمهندسين (مثل الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة) برؤية المسافات بين الأبواب والأرباع السكنية.

المحاكاة الليلية: إشعال حب القطن فوق الرماد ليلاً كان يهدف لمعاينة المدينة من المرتفعات القريبة، لتقدير "المدى البصري" للحراس وتحديد نقاط الضعف الأمنية قبل البدء بالحفر، وهذا ينم عن دقة هندسية استباقية مذهلة. (الطبري، ٢٠٠٤، ص ٥٠٩، ٦١٥)

١.٤ هندسة المواد والاستدامة البيئية

واجه المنصور تحدي "التربة الرسوبية" وفيضانات دجلة بحلول إنشائية مستدامة:

اللبن الجعفري والآجر المفخور: بدلاً من جلب الحجارة من مسافات بعيدة، استثمر المنصور "طين دجلة" وصنع منه آجراً ضخماً (وزن اللبنة الواحدة يصل لـ ٢٠٠ رطل)، مما حقق استدامة الموارد المحلية وخفف من تكاليف النقل الباهظة.

تقنية "السبط" في الجدران: بناء الأسوار بقواعد عريضة (٩٠ ذراعاً) تضيق كلما ارتفعت، كان يهدف لتوزيع الأحمال ومقاومة الهزات الأرضية والضغوط المائية الناتجة عن الفيضانات، وهي تقنية تضمن عمرًا أطول للمنشأة. (الدوري، ١٩٩٧، ص ٧٥)

١.٥ سوسيولوجيا التخطيط: "الكرخ" كصمام أمان

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

أدرك المنصور أن وجود الأسواق داخل المدينة المحصنة يهدد أمنها، فقام بتأسيس "الكرخ" كمدينة تجارية موازية خارج الأسوار.

هذا الفصل الوظيفي بين (السلطة/الجيش) داخل المدينة المدورة، وبين (التجارة/العامة) في الكرخ، كان يهدف لضمان استدامة الهدوء السياسي ومنع التجمهرات العشوائية التي قد تقوض هيبة الدولة. (الدوري، ١٩٩٧، ص ٨٢)

التحديات الطبيعية والبيئية

أدت العوامل المناخية بمرور الوقت دوراً تخريبياً مستمراً في أسوار بغداد؛ فالفيضانات المتكررة لنهر دجلة، والرطوبة العالية في التربة، وهطول الأمطار الموسمية، أدت جميعها إلى تآكل اللَّبِن والمواد الإنشائية التي بنيت منها الأسوار، مما جعل صيانتها عبئاً هندسياً ومادياً مستمراً.

ثانياً: التوسيع العمراني والضغط السكاني مع تحول بغداد إلى حيد عالمي (Metropolis) وقبلة للتجار والعلماء، ضاقت الأسوار بساكنيها.

أدى الانفجار السكاني إلى الزحف العمراني خارج النطاق الدائري الضيق، فنشأت الضواحي والأسواق التي التصقت بالأسوار ثم تجاوزتها، مما أفقد المدينة صفتها كـ "حصن" وجعل الأسوار عائقاً أمام حركة التجارة والتوسع الطبيعي للمدينة. (الحموي، ١٩٧٧، ج١، ص ٤٥٧)

خاتمة المبحث الثاني:

إن التوسع في دراسة المبحث الثاني يكشف لنا أن المنصور لم يكن "بانياً" فحسب، بل كان "مخططاً حضرياً" بكل ما تحمله الكلمة من معنى معاصر.

لقد صمم مدينة السلام لتكون نظاماً متكاملاً (System) يدمج بين الدفاع العسكري، والازدهار التجاري، والاستقرار البيئي، مما جعلها النموذج الأسمى للمدينة المستدامة في التاريخ الوسيط.

المبحث الثالث : بغداد المدورة: دراسة هندسية ومعمارية

الجذور الهندسية والتأثيرات الحضارية

تعددت الآراء حول الأصل التاريخي لهذا النمط الدائري الفريد:

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

التراث الآشوري: ذهب البعض إلى كونه امتداداً لأساليب معمارية قديمة تعود لما قبل الميلاد.

التأثير الميدي (همدان): قيل إن التخطيط استلهم هندسة مدينة "أكبتان" (عاصمة الميديين)، التي كانت تُحاط بسبعة أسوار متداخلة، يقع في مركزها قصر الملك وخزائن أمواله، بينما تتوزع مساكن الرعية في الفراغات بين تلك الأسوار. (الدراجي، ٢٠١٦، ص ٥٥)

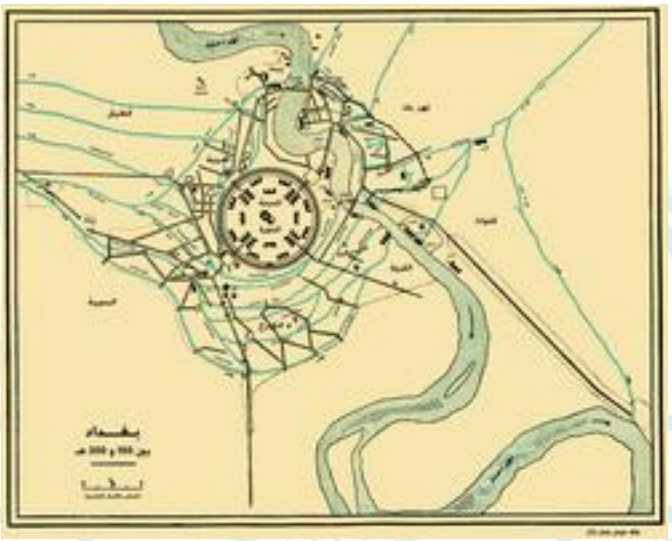

مُخطط يظهر توسُّع ونهضة بغداد الكبيرة خلال قرنًا ونصف قرنٍ من الزمان، بين ١٥٠ إلى ٣٠٠هـ / ٧٦٧ – ٩١٣م. (العميد، ١٩٦٧، ص ٤٥).

البُعد السياسي والاجتماعي للتخطيط

عكس تخطيط المدينة تحولاً جذرياً في فلسفة الحكم، حيث برز الأثر الفارسي بوضوح من خلال:

العزلة والسمو: حرص الخليفة على فصل مقامه عن العامة لتعزيز الهيبة وضمان صعوبة الوصول إليه، مع إبراز أبهة الملك عبر ضخامة القصور والإيوانات.

الرقابة والسلطة المطلقة: يشير الباحث العراقي عبد العزيز الدوري إلى أن عزل السكان في أحياء منفصلة يمكن إغلاقها ليلاً وتشديد الحراسة عليها يعكس مفهوم "السلطة المطلقة"

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

المقتبس من النظم الفارسية؛ وهو ما شكل تباينًا صريحًا مع النمط الأرستقراطي للأمويين أو الديمقراطية الإسلامية الأولى (الدراجي، ٢٠١٦، ص ٦٤)

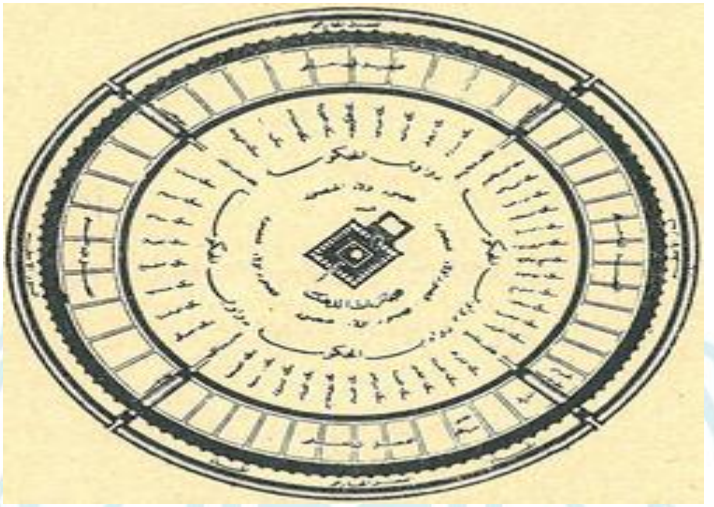

خريطة تظهر حدود المدينة المُدوَّرة التي بناها المنصُور واتَّخذها حاضرة للخلافة الإسلاميَّة حين استقر فيها في شهر صفر سنة ١٤٦هـ / مايو ٧٦٣م. (الدوري، ١٩٩٧، ص ٧٥).

اكتمال البناء وقصر الخلد

تكاملت ملامح المدينة المعمارية والأمنية في عام ١٤٨هـ / ٧٦٦م بعد إتمام السور الخارجي وحفر الخندق وتأمين الإمدادات المائية، ليبلغ محيطها حوالي ٤ أميال (ما يعادل ٥ كيلومترات مربعة).

وفي وقت لاحق، وتحديداً في عام ١٥٨هـ / ٧٧٥م، شيد المنصور "قصر الخلد" على ضفاف نهر دجلة، وهو القصر الذي انتقل إليه ولكنه لم يقم فيه طويلاً بسبب وفاته في العام ذاته.

كانت بغداد المدورة إنجازًا معماريًا عسكريًا غير مسبوق، اعتمد على منظومة دفاعية متكاملة من طبقات متتالية. (محمود وموسى، ٢٠٢٠، ص ٢٥٧).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (١) ملحق (١) آذار. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

٢.١. المكونات الأساسية للنظام الدفاعي

اعتمدت الخطة على ثلاثة أسوار (اثنان رئيسان وواحد داخلي شبه حاجز) يفصل بينهما فصيلان، وتحيط بها قناة مائية (الخندق)، مشكّلة خطوط دفاع متتالية). (مقدسي، ١٩٨٤، ص١٠- ١٥)

١. السور الأول (الخارجي):

وهو السور الذي يحاذي الخندق، وكان أقل سمكاً وارتفاعاً من السور الثاني .. قُدّر محيطه بـ ٢٠,٠٠٠ ذراع حسب اليعقوبي، أو ١٦,٠٠٠ ذراع حسب الخطيب . احتوى على أربعة مداخل (باب الكوفة، باب البصرة، باب خراسان، باب الشام). (مقدسي، ١٩٨٤، ص ١٥)

الدور الدفاعي المتقدم: البعض قلل من أهميته لكونه أقل ارتفاعاً ولكن التحليل المعماري يؤكد أن كونه أقل ارتفاعاً هو مسألة تكتيكية محسوبة، لضمان عدم حجب الرؤية عن الجنود الرابضين فوق السور الثاني كما أن تصميم مدخله كان بمحور منكسر (مزور)، وهو تأكيد قاطع لدوره الدفاعي في كسر زخم الهجوم (ياقوت الحموي، ١٩٧٧).

ب. الفصيل الأول (الشريط الفاصل):

وهو الشريط الأرضي المحصور بين السور الأول والسور الثاني (بعرض ١٠٠ ذراع أو ٦٠ ذراعاً). كانت وظيفته العسكرية هي حماية السور الثاني بتوفير منطقة خالية من البناء (بأمر المنصور)، لتكون ممرًا لوجستياً للقوات الداعمة (الدوري، ١٩٩٧، ص ٧٥).

ج. الفصيل الثاني والنفق السري:

الفصيل الثاني هو الشريط الفاصل بين السور الثاني والمنطقة السكنية. يليه السور الثالث الذي كان بمثابة حاجز يفصل المنطقة السكنية عن المنطقة المركزية التي تضم قصر الخليفة والمسجد الجامع وتفوق المنصور في إجراءات الأمن بإنشاء نفق سري آمن يؤدي إلى خارج المدينة بفرسخين، تحسباً لأي حصار (ابن الأثير، ٢٠٠٥، ص ٨١٧، ٨٢٢).

٢.٢. السور الثاني (الأعظم):

متانة التحصين وعبقرية البناء كان السور الثاني هو الخط الدفاعي الأخير، وتميز بضخامته ومتانته التي تفوقت على السور الأول (الدوري، ١٩٩٧). الأبعاد والقياسات: ذكره اليعقوبي بارتفاع ستين ذراعاً، بينما ذكره الخطيب بـ ٣٥ ذراعاً أما سمكه فوصل إلى ٩٠ ذراعاً عند الأسس و ٢٥ ذراعاً في قمته (حسب اليعقوبي) (ابن العمراني، ١٩٩٩).

نظام الأبراج والمداخل: دُعّم السور بـ ١١٣ برجاً دفاعياً .. وعلى عكس السور الأول، كانت مداخل السور الثاني ذات محور مستقيم وتفضي إلى دهليز آزج معقود بالآجر والجص، ومزود بأبواب حديدية عظيمة (ابن الأثير، ٢٠٠٥، ص ٨٢٣، ٨٢٥)

فن البناء العسكري: اعتمد على اللبن الجعفري (ذراع في ذراع) ..وأهم تقنية كانت هي عملية التراجع التدريجي إلى الداخل (التي تُعرف بـ السبط).. وهي تقنية هندسية لتقليل عدد اللبنات في كل ثلث صاعد، لضمان شاقولية البناء وتخفيف الثقل على الأسس، مع توثيق الربط بحزم القصب(ابن العمراني، ١٩٩٩، ص ٦٦).

المبحث الرابع : قراءة في أبعاد الاستدامة العمرانية لمدينة السلام

تمهيد: لم تكن مدينة السلام (بغداد) مجرد حصن عسكري منيع، بل مثلت قفزة نوعية في الفكر العمراني الإسلامي نحو مفهوم "المدينة المستدامة".

إن عبقرية التخطيط الذي وضعه الخليفة المنصور لم تقتصر على الجدران الصماء، بل امتدت لتشمل خلق بيئة عمرانية متوازنة تضمن استمرارية الحياة والازدهار الاقتصادي والتماسك الاجتماعي تحت مظلة الأمن المطلق.

وتتوزع أبعاد هذه الاستدامة على ثلاثة محاور رئيسة:

٣.١ الاستدامة البيئية والموقعية (العبقرية الهيدروليكية)

اعتمدت استدامة بغداد بيئياً على استغلال الموارد الطبيعية وتوظيف الجغرافيا لخدمة الإنسان:

شبكة الأنهار كمنظومة حياة: وُفِّق المنصور في اختيار موقع بين دجلة والفرات، حيث استثمر تقاطع القنوات (كنهر عيسى ونهر الصراة) لتوفير مورد مائي دائم للاستهلاك البشري، ولخلق منظومة صرف صحي طبيعية تعتمد على انسيابية المياه. (العميد، ١٩٨٨، ص ١٢٠)

الخندق المائي:

لم يكن الخندق المحيط بالسور الخارجي مجرد حاجز دفاعي، بل عمل كمنظم بيئي ساعد في تلطيف الأجواء المحيطة بالأسوار وتوفير رطوبة ضرورية في مناخ العراق الحار.

مواد البناء المحلية:

تجسدت الاستدامة البيئية في استخدام "الآجر" و"اللبن الجعفري" المصنوع من طين المنطقة، مما قلل من البصمة البيئية لنقل المواد من أماكن بعيدة، وحقق عزلاً حرارياً طبيعياً داخل المباني والأسوار. (القرطبي، ١٩٧٧، ص ٣٣١)

٣.٢ الاستدامة الاقتصادية واللوجستية (مركزية التجارة العالمية)

ضمن التخطيط العمراني لبغداد استدامة الموارد المالية للدولة عبر استراتيجيتين:

فصل الوظائف (الكرخ صماماً اقتصادياً): اتخذ المنصور قراراً استباقياً بنقل الأسواق إلى منطقة "الكرخ" خارج الأسوار.

هذا الفصل الاستراتيجي حمى مركز السلطة من التكدس المروري والبشري، وفي الوقت ذاته وفّر مساحات حرة للتوسع التجاري دون قيود الأسوار، مما ضمن استدامة النشاط الاقتصادي وازدهار الحرف. (كوك، ١٩٦٢، ص ٩٠)

عقدة المواصلات الدولية:

وفر موقع بغداد المائي اتصالاً مستداماً بـ "الميرة" (المؤن) من الشمال والجنوب. فأصبحت المدينة مستودعاً عالمياً يربط تجارة الصين والهند شرقاً بأوروبا والمغرب غرباً، مما حول الجباية والضرائب التجارية إلى مورد مالي مستدام مكن الدولة من صيانة مرافقها لقرون. (الحموي، ١٩٧٧، ص ٤٥٦).

٣.٣ الاستدامة الاجتماعية والتنظيمية (سوسيولوجيا المكان)

حقق التخطيط الدائري توازناً اجتماعياً فريداً عبر تنظيم الفضاءات:

تنظيم الخطط والأحياء: تم توزيع الأراضي (الخطط) داخل السور الثاني وخارجه بشكل منظم على القادة والجند والعامة، مما خلق نسيجاً اجتماعياً مترابطاً يسهل إدارته وتوفير الخدمات له (المساجد، الحمامات، الأسواق المحلية) في كل ربع من أرباع المدينة.

(اليعقوبي، ١٩٨٨، ص ٢٣٣)

الفضاءات الفاصلة (الفصائل):

عملت هذه المناطق الخالية بين الأسوار كفواصل أمنية واجتماعية تمنع الاحتكاك المباشر بين السلطة العليا (في المركز) وبين عامة الناس، مما وفر "استدامة سياسية" منعت تحول الاضطرابات الشعبية إلى تهديد مباشر لقلب الخلافة. (الصالح، ٢٠١٨، ص ٤٠)

٣.٤ اختبار الاستدامة: التوسع العمراني (سور المستعين ٢٥١هـ)

مع مرور الزمن، واجهت استدامة "المدينة المدورة" تحدي الانفجار السكاني. ففي عام ٢٥١هـ، اضطر الخليفة المستعين لبناء سور جديد شمل الجانبين الشرقي والغربي.

كان هذا التوسع دليلاً على نجاح بغداد كجاذب حضري، لكنه في الوقت ذاته أعلن بداية تراجع المركزية الدفاعية للمدينة المدورة، حيث تجاوز العمران الحدود التي رسمها المنصور، مما تطلب منظومة تحصين أوسع لاستيعاب المدينة المترامية الأطراف. (العاني، ١٩٨١، ص ٣٤٨)

٣.٥ دورة حياة المدينة: عوامل اندثار الاستحكامات

إن اندثار أسوار بغداد لم يكن فشلاً في التصميم، بل نتيجة "تآكل الاستدامة المادية" بفعل عوامل قاهرة:

العامل الطبيعي (الفيضانات): كانت قوة دجلة والفيضانات المتكررة تؤدي لغرق الأساسات وتآكل اللبن والآجر، مما جعل الصيانة عبئاً اقتصادياً فاق قدرة الدولة في عصور ضعفها. (السامرائي وياسين، ٢٠١٩، ص ١١٠)

العامل الاقتصادي (إعادة التدوير): مع تراجع الأهمية العسكرية للأسوار، بدأ الأهالي بنقض الآجر لاستخدامه في بناء المساكن والقصور الجديدة، وهو نوع من "إعادة التدوير القسري" لمواد البناء الذي عجل باختفاء المنظومة الدفاعية.

تغير الفلسفة السياسية:

انتقل مركز الثقل من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي (الرصافة) ثم إلى سامراء، مما أدى لإهمال المنشآت الأصلية وفقدانها لدورها الوظيفي في استدامة الدولة. (الثعالبي، ١٩٦٠، ص ٣)

خاتمة المبحث الرابع:

نستخلص أن بغداد المنصور كانت نموذجاً متكاملاً للعمارة المستدامة التي لبت احتياجات العصر (الأمن والماء والغذاء) ومهدت الطريق لقرون من السيادة الحضارية.. وبالرغم من اندثار الأسوار المادية، إلا أن "الفلسفة التخطيطية" لبغداد ظلت ملهمة للعمارة الإسلامية في كيفية تطويع البيئة لخدمة المجتمع والدولة.

الخاتمة:

إنَّ قصة تأسيس مدينة السلام (بغداد) تتجاوز كونها مجرد عملية بناء مادي، لتلامس جوهر الصراع على السلطة وتأمين الدولة في العصر العباسي المبكر.

لقد كانت بغداد تجسيداً معمارياً لـ "عبقرية المنظور الأمني" لدى أبي جعفر المنصور؛ حيث دمج بين الرغبة في اتقاء الفتن الداخلية وبين الطموح لتأسيس عاصمة إمبراطورية عالمية.

وقد ضمن المنصور سيادته ليس فقط بالمنعة العسكرية لأسواره، بل بمركزية قصره ومسجده، ليجعل من نفسه ومكانته المحور الذي تدور حوله العاصمة والدولة بأكملها.

لقد أدت الأسوار دورها التاريخي ببراعة في تأمين استقرار الخلافة، وظلت فلسفة تخطيطها شاهداً استثنائياً على تطور الفكر العمراني والاستدامة في الحضارة الإسلامية.

الاستنتاجات

توصّلت الدراسة من خلال تتبع المسار التاريخي والمعماري لمدينة السلام إلى مجموعة من النتائج المحورية، وهي كما يأتي:

أن قرار المنصور بمغادرة الهاشمية وتأسيس بغداد كان استجابة استراتيجية لضرورات أمنية ملحة، فرضتها الاضطرابات السياسية (كثورة الراوندية)، ولم يكن مجرد ترف معمارى.

مثلت المدينة المدورة ريادة عالمية في هندسة التحصين العسكري، من خلال نظام الدفاع متعدد الطبقات (الخندق، الأسوار المتتابعة، الفصائل) الذي يهدف لاستنزاف القوى المهاجمة.

أثبت البحث أن تفاصيل التصميم، كـ "المدخل المزور" وجعل السور الخارجي أقل ارتفاعاً من السور الأعظم، كانت تكتيكات ذكية لتوفير حقل رؤية مفتوح للمدافعين وكسر زخم الهجوم.

كرّس التخطيط المركزي للمدينة (وقوع القصر والجامع في المركز المطلق) فلسفة "وحدانية السلطة"، مما مكن الخليفة من الرقابة والسيطرة البصرية والإدارية على كافة أطراف العاصمة بمسافات متساوية.

أكدت الوقائع التاريخية، ولاسيما حصار الأمين والمأمون، كفاءة هذه التحصينات في الصمود الميداني أمام أقوى آلات الحصار، مما جعلها نموذجاً يحتذى به في فنون العمارة العسكرية.

خلص البحث إلى أن اندثار هذه الاستحكامات لم يكن نتاج خلل في التصميم الهندسي، بل كان ضريبة طبيعية للتطور الحضاري؛ حيث تظافرت عوامل بيئية (الفيضانات) وعوامل اقتصادية واجتماعية (التوسع السكاني ونبش الآجر لبناء أحياء جديدة) في تحويل بغداد من مدينة محصنة إلى عاصمة مدنية مفتوحة.

أثبت البحث أن بغداد مثلت نموذجاً مبكراً للاستدامة العمرانية عبر استغلال الموارد المحلية (طين دجلة) والعبقرية الموقعية التي ضمنت الأمن المائي والغذائي واللوجستي للدولة.

المصادر

١. آدمز، روبرت (١٩٨٤). أطراف بغداد، ترجمة: صالح أحمد العلي وآخرون، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي،

٢. الأعظمي، علي ظريف (١٩٢٧). مختصر تاريخ بغداد، بغداد: مطبعة الفرات،

٣. إلهامي، محمد (٢٠١٣). الخلافة العباسية: عصر القوة والازدهار، ط١، القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،

٤. ابن الأثير، عز الدين علي (٢٠٠٥). الكامل في التاريخ، مراجعة: أبو صهيب الكرمي، عَمَّان: بيت الأفكار الدولية،

٥. البستاني، بطرس (١٨٨١). دائرة المعارف، بيروت: دار المعرفة، ج ٥،

٦. البلاذري، أحمد بن يحيى (١٩٨٨). فتوح البلدان، مراجعة: رضوان محمد رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية،

٧. البغدادي، الخطيب (٢٠٠٤). تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ج ١،

٨. ابن الجوزي، جمال الدين (١٩٩٢). المنتظم في أخبار الملوك والأمم، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٨،

٩. الثعالبي، أبو منصور (١٩٦٠). لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية،

١٠. الدراجي، سعدي إبراهيم (٢٠١٦). "تحصينات بغداد الشرقية في العصر العثماني"، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، العدد (٣٣)،

١١. الدوري، عبد العزيز (١٩٩٧). العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ط٣، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر،

١٢. السامرائي، قاسم؛ وياسين، فاتن (٢٠١٩). "نشأة وتطور محلة باب المراتب في بغداد"، مجلة الملويّة للدراسات الأثرية والتاريخية، المجلد ٦، العدد ١٥،

١٣. الصالح، لمياء عبد الرحمن (٢٠١٨). "أثر نشأة بغداد على نمو النشاط التجاري في موانئ الخليج العربي"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الرياض،

١٤. الطبري، محمد بن جرير (٢٠٠٤). تاريخ الأمم والملوك، مراجعة: أبو صهيب الكرمي، عَمَّان: بيت الأفكار الدولية، ج ٧،

١٥. العاني، حسن خليل (١٩٨١). سياسة الرشيد في الخليج العربي، بغداد: دار الرشيد للنشر،

١٦. ابن العمراني، محمد بن علي (١٩٩٩). الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، ط١، القاهرة: دار الآفاق العربية،

١٧. العميد، طاهر مظفر (١٩٦٧). بغداد مدينة المنصور المدورة، النجف: مطبعة النعمان،

١٨. العميد، طاهر مظفر (١٩٨٨). "تخطيط المدن العربية"، ضمن كتاب: دور الخلافة ومراكزها، ج ٢، بغداد: دار الحرية للطباعة،

١٩. القرطبي، عريب بن سعد (١٩٧٧). صلة تاريخ الطبري، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط٢، القاهرة: دار المعارف،

٢٠. كوك، ريكارد (١٩٦٢). بغداد مدينة السلام، ترجمة: فؤاد جميل ومصطفى جواد، ط١، بغداد: مطبعة شفيق، ج ١،

٢١. محمود، عبير؛ وموسى، ندى (٢٠٢٠). "قصور بغداد في العصر العباسي ١٤٥-٦٥٦هـ"، مجلة ديالى للبحوث الإنسانية، العدد ٨٣،

٢٢. مقدسي، جورج (١٩٨٤). خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة: صالح أحمد العلي، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي،

٢٣. الحموي، ياقوت (١٩٧٧). معجم البلدان، ط١، بيروت: دار صادر، ج ١،

٢٤. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (٢٠١٠). تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية، ج ٢،

٢٥-اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (١٩٨٨). كتاب البلدان، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية،